المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي: واقعه وأثره

The presence of Ash'ari school in the Maghreb and its impact on the theological life

دة. فوزية كرراز

قسم العلوم الإنسانية

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر–الجزائر

histoire134000@gmail.com

تاريخ الإرسال: **2021/11/29** تاريخ القبول: **2021/12/08** تاريخ النشر: **2021/12/30**

ABSTRACT :

In spite of geography, the Islamic Maghreb was never far from the intellectual dynamism of the Islamic Mashriq (Orient). Because of the fifth pillar of Islam, Hadj, capable Muslims should travel to Mecca in Arabia for Pilgrimage, they usually cross Egypt where they visit the famous University of Al Azhar, and stay for a while, and most of them visit Jerusalem, Damascus and Baghdad: most prosper cities of the flourish Islamic civilization. By contacts and presence to high level of Islamic education there they Maghribians scholars, comeback convinced and influenced by new movements in politics, low, theology, sciences…

The Ash'ari School was founded by the Arab theologian Abu al-Hasan al-Ashʿari (d. 936 / AH 324), in Baghdad under the Abbasside Caliphate than it became the dominant theological school within Sunni Islam. After the 4th century of Hijra, Ash'arism reached the Maghreb from Libya to the Atlantic Ocean including Iberia and Muslims of Black Africa.

This brief research is an attempt to study the circumstances and the conditions that made the task of few scholars possible and so easy

to convince all the inhabitants of the western part of the Islamic World embracing the Ash'arism for long time.
Keywords: almaqrizi; Ibn Hazm; Ibn Tumart; kairouan; books; Almoravids; inference; Ibn Rushd; the religious speech; Esenussi.

الملخص:

لم تكن بلاد المغرب الإسلامي بمنأى عن التطورات الفكرية المذهبية التي كانت تحدث في بلاد المشرق الإسلامي؛ إذ كان المغاربة يترددون في رحلات مختلفة المقاصد إلى هناك، ولعل أهمها وأولها رحلات إلى بلاد الحجاز قصد أداء فريضة الحج، وهذا المقصد وغيره أجبر أغلبهم على المرور بمصر، فكانوا ينهلون منها العلم، كما كانت حواضر العلم العربية كبيت المقدس ودمشق، وبلاد العراق مقصد أغلب علماء المغرب شغفا في استزادة في العلم، ومن خلال هذه القنوات تسرب المذهب الأشعري على غرار المذاهب الإسلامية الأخرى إلى المغرب الإسلامي.

وبتتبع المراحل التاريخية لهذا المذهب ببلاد المغرب الإسلامي، نجده يكاد يكون طيلة العصر الوسيط، إلا أنه سجل حالات تأقطع، كما كان له خصوصية لكل مرحلة من مراحله، كانتقاء بعض أراء المذهب بحسب طبيعة وظرفية الدعوة إليه، وأهم ما ميّز هذا المذهب بالمغرب الإسلامي أنه أنزل إلى العوام بتبسيط مضامين علم الكلام، وشرحه لا سيما بفترة الدولة الموحدية التي فرضته على العامة بكل فئاتها، كما سجل التحام مع المذهب المالكي والتصوف السني.

الكلمات المفتاحية: المقريزي؛ ابن حزم؛ ابن تومرت؛ القيروان؛ المؤلفات؛ المرابطين؛ الاستدلال؛ ابن رشد؛ الخطاب الديني؛ السنوسي.

المقدمة:

عرف المغرب الإسلامي تيارات فكرية ومذهبية عديدة سلمية ومتطرفة، وردت عليه من المشرق الإسلامي بشكل منتظم، الهدف منه النأي بالمذهب والمشروع الذي يهدف له بعيدا عن الموطن الأصلي، ونجح في تشكيل سلطة سياسية بأرض المغرب. ومن المذاهب والتيارات

الفكرية ما دخل نتيجة جهد فردي. وبالجهة المعاكسة وجدت من المذاهب بالمغرب الإسلامي ما احتضنته سلطة سياسية على غرار المذهب المالكي والأشعري، بعبارة أخرى لم يكن برنامج لطموح سياسي، بل عزز وجوده وانتشاره بالإقليم بجعله المذهب الرسمي.

نقف في هذه الورقة على المذهب الأشعري كنموذج للمذاهب في المغرب الإسلامي، وقد خلف البحث في تاريخ وجوده خلاف بين المصادر التاريخية ومن وراءها الدراسات. ومن هنا جاءت الإشكالية التي نريد معالجتها، متى كان الدخول الفعلي لهذا المذهب للمغرب الإسلامي؟ ما هي ميكانيزمات ذلك؟ كيف تجسد على أرض الواقع؟ ما موقف السلطات السياسية والدينية منه؟

وتجدر الإشارة أن ذكر تاريخ هذا المذهب بالإقليم المعني بالدراسة، تجسد في معلمين رئيسيين متفق عليهما وهما المهدي بن تومرت، والطريقة السنوسية المجددة للفكر الأشعري. لهذا كان حريا بنا منهجيا اعتماد منهج الاستقصاء والاستقراء للمصادر، حتى نتمكن من رصد خطوات هذا المذهب ليتأكد من انحصاره في المعلمين السابقي الذكر أو لنفند ذلك.

1- ميكانيزمات دخول المذهب الأشعري:

يعتبر دخول المذهب الأشعري لبلاد المغرب الإسلامي من المعضلات التاريخية على غرار المذهب المالكي، بسبب صعوبة تحديد تاريخ ذلك بدقة، وكذلك صعوبة تحديد الشخصية الأولى بل والرجال الأوائل الحاملين له وبناء عليه، فقد عرف هذا المذهب اختلافات بين المصادر التاريخية وكذا الدراسات حول تاريخ دخوله وحملته الأوائل.

في ظل هذا الاختلاف يؤكد الهادي روجي إدريس أن وصول الأشعرية لبلاد المغرب كانت في أواخر حياة أبو الحسن الأشعري (ت324ه/935م)، بمعنى مع مطلع القرن الرابع



الهجري، 10م [1]. وهناك من المصادر التي تشير أن دخولها لم يكن إلا مطلع القرن السادس الهجري/12م على يد المهدي بن تومرت، من هؤلاء المقريزي بقوله: "...فاستمر الأمر على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لإدخال محمد بن تومرت رأي الأشعري إليها"[2]. وفي تلميح من عبد الواحد المراكشي مؤرخ الدولة الموحدية قبله ما يعزز ذلك؛ بحيث اعتبر المهدي بن تومرت أول من عرّف أهل المغرب بعلم الكلام، وقد أخذه هو الآخر من المشرق أثناء رحلته[3]. وأيدت بعض الدراسات هذا الطرح بالقول أن ابن تومرت أحل المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي محل المذهب الظاهري[4]، مع أن هذا الأخير لم ينتشر بالإقليم بالدرجة التي صورها صاحب هذه الدراسة.

بتتبع ما ورد بالمصادر التاريخية لا سيما كتب التراجم وتاريخ الحركة الفقهية بالتسلسل لعلماء المغرب، وكذا رحلاتهم إلى المشرق الإسلامي أو في قدوم المشارقة لبلاد المغرب، قد يتضح أن ملامح المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي كان قبل القرن السادس الهجري/12م، أي قبل فترة المهدي بن تومرت، حتى وإن لم يتم اعتناق المذهب في التصور العقدي و لم يتم تعميمه، بل ظل مقتصرا على طبقة الفقهاء. وفي هذا يشير ابن حزم الأندلسي أن الأشعرية استحكمت بالقيروان في قوله:"أن الأشعرية قامت لهم سوق بصقلية والقيروان، ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين"[5].

وإذا ما سلّمنا برواية ابن حزم والدقة في ألفاظها، يتضح أن دخول المذهب كان في بعد وفاة أبو الحسن الأشعري، وقد يكون بنهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري؛ بحيث المدينة فقدت بريقها العلمي لاسيما الجانب الفقهي منذ حلول الفاطميون بنهاية القرن الثالث الهجري/9م بإفريقية، هؤلاء الذين ضايقوا حملة المذهب المالكي، فضلا عن فقدان المدينة أهميتها

على كل الأصعدة بتأسيس المهدية سنة 309ه/921م. في حين كانت قبل هذه الفترة نقطة إشعاع علمي يفد إليها الطلاب من أقطار الغرب والمشرق الإسلاميين، فضلا عن ما أنجبته من علماء.

2- أعلام المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي:

تشير أحد المصادر أن الفقيه أبو إسحاق إبراهيم القلانسي(ت359ه/969م)كان من مشايخ الأشعرية، وعرف بمواقفه المعادية للشيعة، حتى لحقه الأذى من جراء ذلك [(6)]، ونسب إليه بعض أراء الأشعرية كقوله: بأن الله تعالى في مكان دون مكان وأنه في السماء، والأشعري يقول هذا، وكان قد خالف الفقهاء والمحدثين السابقين من أن الله في كل مكان[(7)].

ويتزامن مع هذا الأخير أبو ميمونة درّس بن إسماعيل الفاسي (ت357ه/967م) الذي التقى بأئمة الأشعرية في رحلته إلى المشرق الإسلامي، واستقر به المقام بفاس ناشرا الفكر الأشعري[(8)].

وعدّ البعض أن الفقيه الشهير أبو زيد القيرواني (ت386ه/996م) ممن أدخل المذهب الأشعري إلى بلاد المغرب، مع أنه ليس لدينا دلالات قاطعة بل مجرد استنتاجات؛ أولها في رحلته إلى المشرق تتلمذ على "جماعة من البغداديين"[(9)]. وفي إشارة للقاضي عياض أنه كان على علاقة حميمة مع أبي عبد الله بن مجاهد (ت370ه/980م) تلميذ الأشعري، وطلب هذا الأخير منه بإرسال نسخ من كتابيه " النوادر والزيادات" و" الرسالة"[(10)]. وجاء في مصدر آخر أنه ورد ذكر ابن أبي زيد القيرواني في مؤلفات الباقلاني(ت403ه/1012م)، واعتذر منه فيما نسب إليه من نفي الكرامات[(11)]. وأورد من جهته ابن عساكر أنّ ابن أبي زيد القيرواني ألّف رسالة في الدفاع عن الأشعري، وبعث بها إلى أحد أعيان المعتزلة بالمشرق، بعد أن حط من

شأنه، ومما كتبه في تلك الرسالة بخصوص الأشعري:" هو رجل مشهور، إنه يرد على أهل البدع وعلى القدرية والجهمية متمسك بالسنن"[12].

وعلى الرغم من أنّ أبي زيد القيرواني كان على علاقة طيبة بعلماء الأشاعرة، وداد عن أبي الحسن الأشعري، إلا أنه وبحسب أحد البحاثة ممن اطلعوا على كتابه "الرسالة" فيقر أنه لم يجد أية صبغة استعراضية، ولا أثر فيها للاستدلال العقلي الأشعري، و لم تختلف المفاهيم العقدية الواردة فيها عن ما هو متواتر عند أهل السلف، ليخلص الباحث أنه لم يتأثر قط بالطريقة الأشعرية[13]، ويتأكد ذلك في انتقاد أبو بكر العربي الأشعري لاحقا لرسالة ابن أبي زيد ويسميها "الغريبة المغربية"[14]، لأن في مقدمتها ما ذهب إليه أهل التسليم والتفويض، كما أنها عقيدة تقرّ بالجهة للذات الإلهية، وكانت تدرّس للأطفال، من هذا المنطلق رأى فيها ابن العربي خطرا يتهدد المذهب الأشعري، الذي من عقيدته رفض كل فكر يجعل الذات الإلهية تتصف بالجهة والمكان[15]. وبخلاف أبي زيد القيرواني، فقد كان مواطنه أبو الحسن القابسي(ت403ه/1012م) شيخ المالكية في عصره، ممن أعلن بأشعريته، وعمل على نشرها وألف فيها[16].

3-آليات نشر المذهب

3-1- **الدعاة**: كان لظهور أبو بكر الباقلاني ببغداد الأثر الكبير في تاريخ المذهب من جهة باعتباره المؤصل الحقيقي لهذا المذهب[17]، وفي نشره بالمغرب الإسلامي من جهة أخرى، ويؤكد ذلك عبد الرحمن بن خلدون بقوله:"....وأخذ عنهم-أي تلاميذ الأشعري- القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم، فهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة...وجملت هذه الطريقة وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية"[18]. أما

بخصوص تأثيره على المغرب الإسلامي فيكمن في أخذ عنه علماء المغرب في رحلتهم إلى المشرق الإسلامي فقه مالك، بحيث كان من كبار أعيانه حتى وصف بأنه" إليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته"[19]. ومن طلبته نذكر أبو عمران الفاسي (ت430ه/1038م) الذي أخذ علم العقليات عنه[20]، أثناء رحلته إلى بغداد سنة 399ه/1008م، وتلقى أصول المذهب عنه، وأعجب هذا الأخير بذكائه وحفظه، ولما رجع إلى بلاد المغرب الإسلامي جلس مطولا بالقيروان، أظهر علمه وقصده الطلاب والعامة من كل جهة[21].

لم يكتف الباقلاني بما قدمه وما أخذه عنه الطلبة من بلاد المغرب، بل أرسل دعاة للمنطقة لبث المذهب بين أهلها، من هؤلاء أبو طاهر البغدادي، كان متقن لعلم الكلام، ومن تلامذة الباقلاني المقربين، ويبدو أنه اجتمع بأبي عمران الفاسي معا عنده، حتى قال عنه هذا الأخير:"لو كان الكلام طيلسانا ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغدادي"[22]. وكذلك الداعي الحسين بن عبد الله الأذري، الذي دخل القيروان واتخذها وطنا وبها توفي سنة 423ه/1031م[23] " من كبار الأشاعرة النازحين إلى المغرب"[24]، وكان لتوجّهه إليه حادثة[25]، وعنه أخذ الكثير من المغاربة، أمثال أبو عمران الفاسي السابق الذكر. وكذلك من المشارقة الأشاعرة الوافدين على بلاد المغرب أبو نصر النيسابوري(ت531ه/1136م)[26]. ولا نستبعد أثناء إقامته العمل على نشر الأشعرية مع أن المصادر التاريخية لم تحدد لنا مدة إقامته بسبتة.

وكان أبو ذر الهروي(434ه/1042م) ممن لهم الفضل كذلك بنشر المذهب في القرن الخامس الهجري/11م في صفوف طلبة المغرب، كونه سكن مكة المكرمة وهناك التقوا به وأخذوا عنه، ويشير إلى ذلك الإمام الذهبي بقوله:"أخذ الكلام ورأى أبي الحسن عن القاضي أبي بكر بن الطيب، وبث ذلك بمكة وحمله عنه المغاربة إلى المغرب والأندلس، وقبل ذلك كان

علماء المغرب لا يدخلون في الكلام، بل يتقنون الفقه أو الحديث أو العربية، ولا يخوضون في المعقولات"[27]. وجاء في مصدر آخر تأكيد ذلك أن:" المغاربة إنما أخذوا الأشعرية عن أبي ذر الهروي"[28]. ومن طلبته المغاربة محمد بن سعدوي القيرواني(486ه/1093م)[29].

ونستطيع الخلوص إلى أن فترة نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري والتي لم تتجاوز نصف قرن، كانت كفيلة في تخريج الطبقة الأولى من الأشاعرة المغاربة، ودليل ذلك ظهور جملة من خريجي الأشاعرة على يد المغاربة من بلاد المغرب، من ذلك الفقيه أبو محمد بن الصائغ(482ه/1089م) من أهل القيروان الذي تتلمذ على أبي عمران الفاسي والسيوري – اللذان يعتبران من الطبقة الأولى– جلس ابن الصائغ بدوره بالمهدية للتدريس والإفتاء، وعنه تخرج هو الآخر أشهر علماء بلاد المغرب ألا وهو الإمام المازري (ت 536ه/1141م).

3–2– المؤلفات:

لم يكن نشر المذهب في الإقليم متوقف على عاتق الرجال مغاربة أو مشارقة فحسب، بل كان للمؤلفات والمصنفات الدور في ذلك، كتداول مصنفات الباقلاني مثل كتاب "الرسالة الحرة" و"كتاب التمهيد" بين المغاربة ببلاد المغرب رواية وتدريسا. ولم يتوقف إعجابهم بهذه الشخصية حدّ المؤلفات، بل كانوا يراسلونه طلبا للفتوى على النوازل الواردة لاسيما العقدية[30]. كما كان لمؤلفات الإمام الجويني (ت478ه/1085م) شهرة في أوساطهم فاهتموا بها شرحا وتدريسا، لا سيما كتاب "الإرشاد" وكتاب "البرهان"[31]. كما كان كتاب "تأويل مشكل الحديث" لابن فورك (ت 406هـ/1015م) من الكتب التي دخلت لبلاد المغرب والأندلس، ورويت شفويا[32].

وبعد مرحلة استقدام مؤلفات المشارقة للمذهب، دخل المغاربة في مرحلة التأليف، وهذا إن دل فإنه يدل على أن هذا المذهب قطع شوطا كبيرا ببلاد المغرب. ففي إشارة للباحث عبد المجيد النجار، وبعد اضطلاعه على مؤلفات القابسي لا سيما رسالته الشهيرة المعروفة ب" الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"، وجدها احتوت المنهج الاستدلالي الذي يقوم على الحجة العقلية أكثر مما يقوم على الإستشهادات النصية[33].

وكان للإمام المازري(536ه/1141م) من جهته مؤلفات واضحة في الفكر الأشعري، وتبينت جليا أشعريته من خلالها، فقد شرح في مصنفه "المعلم بفوائد مسلم" الأحاديث المتعلقة بالعقيدة كالكلام في الصفات والتأويل، وألف آخرا أسماه " النكت القطعية في الرد على الحشوية" وانتصر فيه للآراء الأشعرية[34].

4- المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي ما بعد القرن 5ه/11م:

الشائع أن المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي لم يتواجد إلا مع النشاط الدعوي للمهدي بن تومرت(ت524ع/1129م)[35]، إلا أن ما قدمناه سلفا يثبت العكس، لكن يجدر التنبيه أن طبيعة انتشاره بالقرن السادس يختلف عن فترات سابقة له، فكيف ذلك؟

مع مطلع القرن السادس الهجري/12م، ظهرت شخصية مغربية متفردة في الفكر والآراء، تميزت في الكتابات التاريخية المغربية والمشرقية، ألا وهي شخصية المهدي بن تومرت، الذي أصبح حسب أحد المؤرخين "بحرا متفجرا من العلم"[36] بعد رحلته إلى المشرق لتحصيل العلوم، ليبدأ في تجسيد فكره بعد عودته إلى بلاد المغرب سنة 515ه/1121م داعيا إلى إصلاح فكري ديني شامل، ناقما على ما وجد عليه أهل المغرب.

ومع أن المهدي بن تومرت حمل بجعبته خليط من المذاهب الإسلامية، كالمذهب المعتزلي والشيعي والظاهري والأشعري، لكن يبدو طغى عليه الأخير؛ حيث "كان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية"(37). وفي النص دلالة على أنه لم يكن أشعريا خالصا، وإنما توافق في بعض أرائه الاعتقادية معهم(38).

من الناحية العملية ألف المهدي في العقائد كتاب "المرشدة" وكتاب" التوحيد"، والأخير كان في سبعة أحزاب بعدد أيام الأسبوع آمرا بقراءة حزب واحد كل يوم إثر صلاة الصبح بعد الفراغ من قراءة حزب من القرآن،(39) و«ذكر أنه لا ينفع مؤمنا إيمانه ما لم يقم على ذلك»(40)، والواضح أنه نجح في ترسيخ مؤلفاته في أوساط العامة؛ إذ يشير صاحب الحلل إلى ذلك قائلا: «وألف لهم كتابا سماه "بالقواعد" وآخر سماه "بالإمامة" هما موجدان بأيدي الناس إلى هذا العهد ودونهما بالعربي والبربري»(41). ومن الأرجح أن مؤلفاته باللغة البربرية لم تكن تعبيرا عن نزعة قومية عرقية بقدر ما كانت تجاوزا لمشكل التواصل اللغوي، وتيسيرا للبربر الذين كانوا غير ملمين باللغة العربية لاستيعاب برنامجه الإصلاحي(42)، وحتى يتسنى للجميع بحسب ألسنتهم مطالعتها وفي هذا يكون خالف سابقيه من الأشاعرة المغاربة، ويحسب له نشر المذهب بالمغرب الإسلامي.

جعل ابن تومرت العلم وفي أعلى درجاته أي علم التوحيد أو ما يعرف بعلم الكلام(43) فرضا على عامة الناس، وأنه أول ما يجب تحصيله، بل قال بوجوب تقديمه على العبادات(44). ومن يقرأ مجموعه المسمى أعز ما يطلب، يجد الكثير من موضوعاته كلامية صرفة، أي لا يخوض فيها ويفهمها إلا المتمرسين بعلم الكلام ومع ذلك أخذ الناس بقراءته(45).

وواصل خليفته عبد المؤمن بن علي ذلك؛ بحيث ألزم العامة بقراءة عقيدة ابن تومرت التي أولها «أعلم أرشدنا الله وأياك» مع حفظها وتفهمها[46]، كما«أشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد»[47].

هذا، وقد اهتم الخلفاء الموحدون بتعليم أولادهم علم الكلام فنبغوا فيه، من بينهم زينب ابنة أبي يعقوب الموحدي التي درست علم الكلام[48]، فكانت من الأسماء اللامعة التي عرفت بصفتها العلمية الفقهية في الفترة الموحدية[49]. وبهذا يكون المهدي بن تومرت وخليفته صاحبا الفضل في نقلة نوعية للمذهب بالإقليم المعني بالدراسة.

الواضح أن الأثر الأشعري للمهدي بن تومرت كان بعيد المدى، وتجاوز عهده وعهد الدولة الموحدية، بحيث لقيت رسالته "المرشدة" على صغر حجمها شروحات عديدة[50]، منها شرح محمد بن إبراهيم بن عباد التلمساني (ت792ه/1389م) بعنوان "الذرة المشيدة في شرح عقيدة المرشدة"، وشرح أبو زكرياء عمر التنسي الذي أسماه "الأنوار المبينة المؤيدة لمعاني عقيدة المرشدة". وجاء شرح ابن النقاش لها بعنوان "الدرة المفردة في شرح عقيدة المرشدة".

والواضح أن دور الموحدين في نشر المذهب أتت أكلها، بحيث حضوا على علم الكلام، وهيئوا الظروف لذلك، فاسحين المجال للاجتهاد، ولعل ذلك ساهم في بروز أعلام بالمذهب بذات الدولة، ولعل أبرزهم أبو عمرو عثمان السلاجي (ت594ه/1197م)[51]، الذي حمل لواء المذهب الأشعري وعمل على نشره، ونتيجة تضلعه في علم الكلام، أنزل منزلة أبي المعالي الجويني في علم الكلام[52]، فقال عنه مؤرخ الفاسيين أنه" هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم، وعنه نشأ في المغرب علم أصول الدين"[53]. وعلى الرغم من إسهاماته في نشر

هذا المذهب، إلا أن المصادر لا تمدنا بالمعلومات الوافرة عنه وعن نشاطه وتآليفه في المجال، كل ما اشتهر عنه تأليفه "عقيدة البرهانية في علم الألوهية" المشهور بالبرهانية، وهو في علم الأصول، وقد سلك فيها منهج الإمام الجويني في كتابه "الإرشاد"[54] وتجدر الإشارة أنه تأليفه هذا كان لأجل الفقيهة "خيرونة الأندلسية"[55]. وما من شك أن شخصية كالسلاجي يخص سيدة بمثل هذا التكريم إلا إذا كانت على مستوى كبير من المعرفة الدينية[56].

ونعتقد أن تأليفه للبرهانية كان بطلب منها، لا سيما أنها فقيهة وكانت بعض الفقيهات يشرفن على تعليم النساء، وبالتالي طلبت منه مختصر للفكر الأشعري يعينها على تقديمه لتعليم النساء، وهي دلالة على اعتماد عقيدة السلاجي ودورها في ترسيخ المذهب الأشعري وهيمنتها على المجال التعليمي، والمحصلة أنها عكست العقيدة الرسمية لأهل المغرب.

وبعد الفترة الموحدية –ق6و7ه/12-13م- لا نجد ذكرا لشخصية برزت وجددت المذهب ببلاد المغرب، بل ظل العمل بالمذهب في التدريس متوقف على تلقين برهانية السلاجي، فقد تولى تدريسها وشرحها أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني(ت811ه/1408م)[57]، وأبو الحسن اليفريني المكناسي (ت734ه/1333م) صاحب الشرح الكبير للبرهانية وأسماها"المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية" وكذلك ممن تولوا تدريسها عبد الرحمن بن سليمان السملالي(ت882ه/1477م)[58].

وكان مطلع القرن التاسع الهجري/15م ينبأ لحقبة جديدة اتسمت بفتور همم الناس على الإتيان بالجديد، فطغى التقليد وهيمن الجمود على الفكر[59]. وفي ظل هذا الوضع الفكري المتردي برز وتميز الإمام أبو عبد الله محمد السنوسي(ت895ه/1489م)، فشن حربا على التقليد، و لم يكتف باستهجانه ونبذ أهله، وإنما بوأ كل مقلد في المسائل العقدية بصفة عامة وبدون قيد أو شرط مقعده من الكفر، ومرجعيته في ذلك ما ذهب إليه إجماع أئمة

الأشعرية، كأبي الحسن الأشعري، والقاضي الباقلاني، والإمام الجويني في نبذ التقليد وأهله[60].

والواضح أن طابع عصره المتسم بالجمود، هو الذي دفعه إلى الدعوة للتجديد ومحاربة التقليد، وتجسد ذلك في إسهاماته الغزيرة في التأليف العقدي، وحتى يقربها من الطلبة سلك فيها منهج التدرج من الصعب إلى السهل، ثم يتبعه بشرح، وهذا إدراكا منه بصعوبة وتعقد علم التوحيد، فأراد التبسيط لتقريب الإفهام للطلبة[61]. ولا غرو أن هذا التبسيط مكنها من اكتساح الساحة التعليمية، في مختلف المراحل العمرية التعليمية، وبشكل رسمي في الجوامع والمدارس آنذاك[62].

وأصبحت العقيدة السنوسية تشكل المصدر المحلي الأول لعلم التوحيد بالمغرب الإسلامي بدلا من السلاجية والمرشدة[63]، كما أنها أصبحت المرجعية المعوّل عليها في الفتاوي العقدية خلال تلك الفترة[64].

5–المواقف المعارضة للمذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي:

تجسدت المواقف المعادية والرافضة لوجود المذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي في السلطة السياسية والسلطة الدينية، مثلها مواقف فقهاء فرادى وجماعة، نحاول اختصارها في:

وصف لنا عبد الواحد المراكشي، الموقف المعادي لأهل المغرب لعلم الكلام في عهد المرابطين في قوله: "ودان أهل ذلك الزمان بتكفير من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين...حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعّد من وجد عنده شيء من كتبه"[65].

كان هذا موقف الفقهاء في الدولة المرابطية، بحجة درء الفساد عن العامة ومنعهم من الخوض في علم الكلام، رغم أن الدعاة الأوائل لهذه الدولة خاضوا في علم الكلام وكانوا من أشاعرة زمانهم ببلاد المغرب وعلى رأسهم أبو عمران الفاسي كما ذكرنا سلفا. ولعل حادثة إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي لخير دليل على التعبير عن موقف الفقهاء بالدولة المرابطية من الأشاعرة.

وإن تعددت تفاسير حول سبب الإفتاء بحرق الكتاب، والتي تمحورت في سببين، أولهما خوف فقهاء المالكية على مكانتهم بالبلاط المرابطي وفقدان نفوذهم داخله(66)، في حين اعتبر عند البعض الآخر أنها كانت بسبب تعرضه للفقهاء، وتشنيعه عليهم(67)، والحديث يطول في الوقوف عن حيثيات الإحراق، والمقام لا يسعنا في ذلك. كل ما يهمنا بالمحصلة أن حادثة الإحراق في حد ذاتها تعتبر رفضا للمذهب ومحاولة محاصرته لكي لا ينتشر أكثر بين الخاصة والعامة.

وبعيدا عن حادثة إحراق كتاب علوم الدين للغزالي، وبغض النظر عن السبب في ذلك، يوجد تيار فقهي مستقل عن الحادثة المذكورة، معادي لوجود التيار الأشعري بالمغرب الإسلامي وسبّ أئمتهم والانتقاص من قدرهم، دلالة ذلك توجيه سؤال للفقيه أبو الوليد بن رشد عن رأيه في أئمة الأشعرية، أمثال أبو الوليد الباجي، والجويني ونظرائهم في المذهب، أهم أئمة إرشاد أم قادة ظلال؟ وماذا يقول في قوم يسبونهم ويسبون كل من ينتمي إلى الأشعرية ويكفرونهم ويتبرؤون منهم، وينحرفون بالولاية عنهم ويعتقدون أنهم على ظلالة(68).

وتجدر الإشارة إلى أن الفقيه أبو الوليد بن رشد كان قد أصدر فتوى يمنع فيها العامة على قراءة كتب الأشاعرة، وأن كل مصر على تعليم العامة العقيدة الأشعرية، فقد يعتبر كافرا، بحجة أن خوض العامة في مسائل الكلام يخرجهم عن الدين، لقصورهم الفكري(69)، ولهذا فإن

المشروع التومرتي القائم على ربط العوام في نظام محكم حول عقيدة صارمة هو مشروع فاسد من الأساس بحسب منطق ابن رشد، لأنه حطم الحاجز الضروري في نظره القائم بين العامة والعلم(70).وقد جرّ ابن تومرت العامة إلى ذلك، وهذا أمر طبيعي لأن علم الكلام هو مجال يلتقي فيه الدين بالسياسة وهو الطريق الذي يدخل منه العوام إليها والانشغال بها وهذا ما رفضه ابن رشد(71).

كما ركز حملته ضد فكرهم في تحليل خطابهم تحليلا منطقيا لإبراز مدى انسجامه مع الخطاب العقلي البرهاني والخطاب الديني الشرعي، ليخلص في الأخير إلى أن الطرق الاستدلالية التي سلكها الأشاعرة ليست طرقا يقينية يقينا برهانيا عقليا، ولا هي يقينة يقينا شرعيا، فهي أدلة مفتعلة، وبالنسبة له أن الاعتقاد في وجود الله على الطريقة الأشعرية تخرج الإنسان عن دائرة الإسلام الحقيقي، فكأن العقيدة الأشعرية صارت نوعا من الابتداع الذي يخرج صاحبه عن الإسلام، وكان هذا أقسى ما وصل إليه ابن رشد في حق الذهب(72).

وبالجملة لقد كان نفور المالكيين من علم الكلام مقرونا بالابتعاد عن الرأي والتأويل وإقرار المتشابهات في الآيات القرآنية ملتزمين بالنص الحرفي أو التفسير الظاهري للآيات، مستندين في ذلك فيما ذهب إليه السلف الصالح وعلى رأسهم الإمام مالك بن أنس(73).

الخاتمة:

من المهم الإشارة إلى أن بحثي هذا لا يعدو أن يكون دراسة في السيرورة التاريخية للمذهب، وليس لمناقشة المسائل العقيدية له بحكم هذا ليس من اختصاصي، كما أننا اقتصرنا على أعلام المغرب دون الأندلس، مع أن الأمر يصعب إلى حد ما في الفترة المرابطية ثم الموحدية. ومع ذلك وبناء على ما تقدم في العرض خلصنا إلى جملة من النتائج نجملها في:

1- تبين أن دخول المذهب الأشعري لبلاد المغرب لم يكن بمطلع القرن السادس الهجري/12م على يد المهدي بن تومرت كما هو رائج ويكاد يكون من المسلمات بل سابق لذلك.

2-يكاد يكون دخول المذهب الأشعري للإقليم المعني بالدراسة في حياة مؤسسه أبو الحسن الأشعري، عن طريق علماء المغاربة ممن قاموا برحلات حجية وعلمية إلى المشرق الإسلامي وهيئوا له الأرضية بعد ذلك.

3- نعتقد أن الدخول الحقيقي وبشكل واسع كان مع أشعرية الباقلاني عن طريق مؤلفاته وطلبته من المغاربة والمشارقة، باعتبار هذا الأخير أعاد بلورة المذهب وإعطائه دفعا جديدا بالمغرب الإسلامي، هذا لأنه إلى جانب أشعريته في الأصول كان مالكيا في الفروع.

4- ضاق أفق هذا المذهب في الفترة المرابطية للتتسع قاعدته مع الموحدين لفرض تعليمه للعامة.

5- اعتبرت الأشعرية السنوسية استفاقة للمذهب الأشعري بالمغرب الإسلامي، ونهضة جديدة له، بخصائص مميزة مكنته للسيطرة على الحركة التعليم بالإقليم.

الهوامش:

(1)Hadi Roger Idriss, Essai sur la diffusion de l' acharisme en Afrique, cahier, Tunisie 2eme ,1953, p139.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة حلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، دت، ج2، ص343.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح محمد محمد زينهم، محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994، ص151.

(4) أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1985، ج2، ص33.

(5) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1975، ج4، ص204.

(6) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، دت، ص144.

(7) عبد المجيد النجار، فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ص22.

(8) إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقائد أهل السنة، دراسة الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح إلى نهاية ق5هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2005، ص252.

(9) الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، مكتبة العتيقة، تونس، دت، ج3، ص109.

(10) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان المذهب مالك، تح أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1971، ج4، ص477.

(11) الدباغ، المصدر السابق، ج3، ص112.

(12) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، تح أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ط1[1]، 1990، 123-124.

(13) عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص24.

(14) ابن العربي، العواصم من القواصم، تح عمار طالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ج1، ص263.

(15) يوسف أحنانة، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2003، ص110.

(16) ابن عساكر، المصدر السابق، ص123-124.

(17) أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ج2، ص89.

(18) المقدمة، دار العودة، بيروت، 1981، ص369.

(19) القاضي عياض، المصدر السابق، ج4، ص430.

(20) ابن بشكوال، الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، ج2، ص601.

(21) القاضي عياض، المرجع السابق، ج4، ص 703.

(22) ابن عساكر، المصدر السابق، ص123.

(23) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2، ص ص586-599.

(24) نفسه، ج2، صص586-589.

(25) السبب في ذلك أنه بعثه الباقلاني إلى دمشق بطلب من أهلها، ولما عقد مجلس تذكير بجامع دمشق، فأتى على ذكر التوحيد ونزه المعبود ونفي عنه التشبيه، فانفض عنه المجلس مرددين أحد أحد، حينها طلب من شيخه إن يوجهه إلى بلاد المغرب. ابن عساكر، المصدر السابق، ص217.

(26) إبراهيم التهامي، المرجع السابق، ص264.

(27) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح مجموعة باحثين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982، ج17، ص557.

(28) ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1966، ج12، ص50.

(29) ترجم له القاضي عياض، المصدر السابق، ج2، ص799-800.

(30) إبراهيم التهامي، المرجع السابق، ص257.

(32) المرجع نفسه، ص257.

(33) عبد المجيد النجار، فصول في الفكر الإسلامي، ص26.

(34) ابراهيم التهامي، المرجع السابق، ص268.

(35) المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص358. ابن خلدون، العبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج6، 267.

(36) ابن خلدون، العبر، ج6، ص267.

(37) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص156.

(38) عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، حياته وأراؤه، ثورته الفكرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987. ص442.

(39) مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تح حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1399-1979، ، ص109-110

(40) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1424-2003ج3، ص399.

(41) مجهول، الحلل، ص110

(42) إبراهيم حركات، المجتمع والسلطة في العصر الوسيط، ص45



(43) هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص350.

(44) المهدي بن تومرت، المصدر السابق، ص272

(45) علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة الدينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1998، ص213

(46) رسائل موحدية، مجموعة بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، ص130-131

(47) نفسه، ص131.

(48) ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص486.

(49) عبد الله كنون- النبوغ المغربي في الأدب العربي- دار الكتاب اللبناني بيروت- ط3، 1395هـ/1975م- ص153.

(50) يوسف أحنانة، المرجع السابق، ص92-93.

(51) ينتسب إلى بيت مشهور بالثروة والفقه، وهو من العرب القيسين، عرف بالسلاجي نسبة إلى إقامته بجبل سليلجو، وعنه نشأ علم أصول الدين بالمغرب، كما أنه كان من أنقذ أهل فاس من التجسيم، وتوفي بفاس سنة 594هـ/1198م. ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م، ص45

(52) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص45.

(53) ابن الأحمر، المصدر السابق، ص45.

(54) يوسف أحنانة، المرجع السابق، ص112-113.

(55) ابن الأحمر، المصدر السابق، ص45.

(56) عبد الهادي التازي، المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، ص116-117.

(57) عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، "الأصالة، ع26، 1976، ص145.

(58) يوسف أحنانة، المرجع السابق، ص113-114.

(59) عز الدين عمر احمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، دت، ص11.

(60) محمد نووي، نور الظلام على المنظومة المسماة بعقيدة العوام للشيخ اللوذعي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، دت، ص07

(61) بوداود عبيد، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين ق 7-9ه/13-15م، دار الغــرب للنشــر والتوزيع، وهران، 2003، 308.

(62) فرج محمود فرج، إقليم توات خلال ق18-19م، دراسة لأوضاع الإقلــيم السياســية والاجتماعيــة والاقتصادية والثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص89.

(63) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإســلامي، بــيروت، ط1، 1998، ج2، ص92

(64) يوسف أحنانة، المرجع السابق، ص199.

(65)إبراهيم التهامي، المرجع السابق، ص268.

(66) محمد عابد الجابري، ابن رشد: سيرة ومكر، مركز دراسات الوحدة العربية، بــيروت، ط2، 2001، ص26.

(67) محمد محمود بيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، دار الأندلس الخضــراء، الســعودية، ط1، 2000، ص126.

(68)كمال السيد أبو مصطفى، دراسات أندلسية في التاريخ والحضارة، مركــز الإســكندرية للكتــاب، الإسكندرية، 1997، ص26.

(69) يوسف أحنانة، المرجع السابق، ص72-73.

(70) أومليل، المرجع السابق، ص218.

(71) أومليل، المرجع السابق، ص210

(72) محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص27.

(73) أحمد محمود صبحي، المرجع السابق، ج2، ص229.